

مجلة التربية للعلوم الانسانية

مجلة علمية فصلية محكّمة، تصدر عن كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة الموصل

العراق في شعر لسان الدين بن الخطيب–دراسة دلالية

نور رافع طه [1] **غيداء احمد سعدون** [2]

جامعة الموصل / كلية التربية للبنات / قسم اللغة العربية / الموصل – العراق [1، 2]

معلومات الارشفة

تاريخ القبول : 2026/4/8

تاريخ النشر : 2026/10/20

الكلمات المفتاحية :

العراق في الشعر، لسان الدين بن الخطيب، الشعر الأندلسي، ديوان لسان الدين بن الخطيب، بغداد في الشعر الأندلسي

معلومات الاتصال

نور رافع

noor.24gep80@student.uomosul.edu.iq

الملخص

في ظل التقنيات الحديثة للتواصل الالكتروني والانفتاح على العالم صار المجتمع مبتعداً عن الارتباط الروحي والنفسي بالمكان الذي ينتمي إليه والقيم التي ترتبط بالمكان وتشكل هويته، وآلَ ذلك إلى انسلاخه عن تاريخ حضارته ووطنه.لذلك ركز هذا البحث على القيم التاريخية والحضارية والثقافية والدينية والجمالية للعراق ومدنه ومتعلقاته من خلال رؤية "الآخر" غير العراقي، وتمثّل الآخر هنا بنظرة الأندلسيين للعراق من خلال شعر وزير ومؤرخ وفيلسوف أندلسي مشهور هو لسان الدين بن الخطيب(ت776هـ)، الذي وجدنا في شعره نظرة التعظيم والتبجيل للعراق، ذاكرًا اسمه تارة وأسماء معالم مكانية ضمنه تارات أخرى ليوظفها في النص الشعري، فذكر: العراق وبغداد والأنبار والحيرة وقصر الخورنق وذي قار وبابل وكربلاء وغيرها من الأعلام المكانية العراقية متبحّرًا في معرفة خصوصيات كل منها رغم أنه لم يزر العراق فعلاً كما علمنا من سيرة حياته، مما يؤكد على مكانة العراق ووصول منجزاته إلى الأندلس، وحاول البحث تقصي دلالات هذه الأعلام المكانية من الناحية التاريخية والثقافية والسياسية والدينية وأثر توظيفها في السياق الشعري من الناحية اللغوية والتصويرية والإيقاعية، وأخيرًا فإن تقصّي ذكر هذه الأعلام المكانية العراقية في شعر أندلسي يحيلنا إلى مواجهة الغربة التي فرضتها الإلكترونيات لنتوجه باهتمامنا نحو أرضنا وتاريخنا ولنعزز ارتباط العراقي بوطنه

DOI: **********,, ©Authors, 2025, College of Education for Humanities University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Journal of Education for Humanities

A peer-reviewed quarterly scientific journal issued by College of Education for Humanities / University of Mosul

Iraq in the poetry of Ibn al-Khatib - a semantic study

Noor Rafeh Taha [1] **Ghaidaa Ahmed Saadoun** [2]

University of Mosul / College of Education for Women / Department of Arabic Language / Mosul - Iraq [1,2]

Article information

Accepted : 8/4/2026

Published 20/10/2026

Keywords:

Iraq in poetry, Lisan al-Din Ibn al-Khatib, Andalusian poetry, Diwan of Lisan al-Din Ibn al-Khatib, Baghdad in Andalusian poetry

Correspondence:

Noor Rafeh

noor.24gep80@student.uomosul.edu.iq

Abstract

In light of modern communication technologies and the widespread use of electronic media, the world has become an open community in which individuals may become detached from the places and values that shape their identities. However, this does not diminish the importance of one's history, civilization, and homeland. Accordingly, this study examines the historical, civilizational, cultural, religious, and aesthetic values of Iraq and its cities through the perspective of the "Other" in Andalusian Arabic poetry. It adopts the poetry of the renowned Andalusian vizier, philosopher, and man of letters, Lisān al-Dīn Ibn al-Khaṭīb (713–776 AH / 1313–1374 CE), as its primary corpus. His poetry reflects profound admiration for Iraq, celebrating its glorious past and illustrious landmarks. He employs Iraq as a rich poetic symbol, referring to Iraq itself, Baghdad, Mosul, Basra, the Euphrates, the Tigris, Babylon, Karbala, and numerous other Iraqi geographical landmarks. His careful depiction of the distinctive characteristics of these places demonstrates his deep appreciation of Iraq, despite the fact that, according to historical accounts, he never visited the country. This, in turn, highlights Iraq's prominent status and the far-reaching influence of its civilization, which extended even to al-Andalus. The study investigates the extent of Ibn al-Khatib's admiration for Iraq by analyzing the historical, cultural,

political, and religious significance of Iraqi geographical references in his poetry. It also examines the artistic, linguistic, rhetorical, and rhythmic dimensions of their poetic use. Finally, the study demonstrates how exploring Iraqi geographical references in Andalusian poetry can help confront the sense of alienation fostered by the digital age, encourage a renewed attachment to our homeland and history, and strengthen Iraqis' sense of national belonging

DOI: **********,, ©Authors, 2025, College of Education for Humanities University of Mosul.
This is an open access article under the CC BY 4.0 license (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

توطئة

للعراق قيمته التاريخية والحضارية والدينية الكبيرة في العالم العربي وغير العربي، فهو مهد الحضارات ومستودع العلم والأدب منذ سومر وآشور وأكد وغيرها من الحضارات القديمة، وارتفعت مكانته في العصر العباسي ليكون جوهرة العالم؛ فوجوده كمركز للخلافة العباسية جعله حاضرة الدنيا ومستقطب العلماء والأدباء من مختلف أصقاع العالم، وتوازيه في ذلك بلاد الأندلس التي كانت تشد إليها الرحال أيضاً لطلب العلم.

وكان الأندلسيون لشغفهم بالتميز العلمي والأدبي يتوجهون بأنظارهم وتطلعاتهم إلى العراق حتى صار محطّ سفرٍ في رحلاتهم إلى المشرق إما لغرض الحج أو طلب العلم لما كان يتمّتع به من ممزات، إذ اهتمت الخلافة العباسية اهتماماً كبيراً بالعلم وبإنشاء دور الطباعة والترجمة لأهم الكتب العلمية والأدبية والفقهية والفنية.

وقد طرّز الشعراء الأندلسيون ذكر العراق وما يتعلق به في أشعارهم وبخاصة في شعر لسان الدين بن الخطيب الغرناطي المتوفى سنة (776هـ)، وعند جرد الأعلام المكانية التي تخص العراق ومتعلقاته في شعره وجدناها كما يأتي:

الأعلام المكانية العراقية في ديوان لسان الدين بن الخطيب
عراق: مج2/535، مج2/ 556، مج2/ 673، مج2/ 709، مُعرقين (متوجهين إلى العراق): مج1/375،
عِراقيين (دجلة والفرات): مج1 / 356
لأنبار: مج1/ 370
بل: مج1/ 109، مج1/ 377
غداد: مج1/ 156، مج2 / 577

جسر: مج1/ 375
حيرة: مج1/444
فّان: مج2/518، مج2/588
خورنق: مج2/ 627
جيل: مج1/ 375
ي قار: مج1/ 370
رافدين: مج1/ 156
نداد: مج2/ 627
ط الفرات: مج2/ 480، مج2/ 736
ربلاء: مج2/ 773
دي السماوة: مج1/ 227

وإذا عدنا إلى تاريخ ارتباط الأندلس بالعراق وجدناه يعود إلى بدايات الفتح الإسلامي للأندلس؛ إذ قال بعض المؤرخين أن موسى بن نصير فاتح بلاد الأندلس عراقي الأصل من منطقة عين التمر التي تقع غرب كربلاء والذي كان له ولأولاده من بعده الشأن الكبير في استقرار الحكم الإسلامي في الأندلس(ابن كثير، 1358هـ، 9/ 171).

وفي عصر عبد الرحمن الداخل (ت172هـ) ازداد ذكر العراق كونه الجزء القوي في الدولة الأموية التي حكمها أجداده وكانت عاصمتها الشام، ومن بعد ذلك موطن الحكم العباسي الذي فر منه عبد الرحمن الداخل لكنه ظل يحن إلى موطنه وإلى حكم أجداده والتشبّه بهم حتى بعد استقرار حكمه في الأندلس ومن بعده عهد ولديه هشام والحكم إذ " شهدت الأندلس في هذه الفترة بداية الترف الاجتماعي المتمثل في بناء المنيات (قصور ريفية) خارج قرطبة كقصر الرصافة الذي بناه الداخل على سفح جبل قرطبة، وكذلك القصر الذي بناه ابنه عبد الله في مدينة بلنسية وأطلق عليه اسم الرصافة أيضاً"(إبراهيم واخرون، 2000، 424) تيمّنا برصافة هشام جده في بلاد الشام فضلاً عن الرصافة التي بناها أبو جعفر المنصور (ت158هـ) في بغداد وبما يذكّرهم بالمشرق العربي وحضاراته العريقة آملين بإنشاء حضارة تخلد أسماءهم كحضارة المشرق وتحديداً العراق.

أما في عصر عبد الرحمن الأوسط (ت238هـ) فقد وصلت الحضارة الأندلسية أوج عظمتها متأثرة بالحضارة العراقية تأثرًا كبيرًا، إذ فتح هذا الأمير أبواب الأندلس للثقافة العراقية التي عدها المثل الأعلى، لذلك قام بإرسال البعثات من بلاده إلى العراق، ومن بينهم عباس بن ناصح للاطلاع على الثقافة العراقية، فعمدوا إلى جمع الكتب ونسخ المهم منها ونقلها إلى الأندلس ومنها إلى أوربا، كما يروى أنه قام بتقليد الخلفاء العباسيين في مظهرهم وملابسهم والاحتجاب عن الرعية ليضفي على إمارته الهيبة والرهبة(خليل، 2022، 1/ 400؛ راضي، 2022، 926–948).

كما ساهمت الرحلات من الأندلس إلى المشرق في تكوين علاقات تجارية بين الاندلس والعراق، فدخلت الأندلس البضائع العراقية، وشكلت هجرة زرياب العراقي الموصلي إلى الاندلس عام 206 حدثًا مهمًا في المجتمع الأندلسي بما أدخله من عادات وتقاليد للقصور العراقية التي نقلها عما كان يشهده في قصور الحكام العباسيين في العراق وفنون الغناء والموسيقى وتأسيس مدرسة لهما وجلب الإماء القيان (المغنيات) من العراق اللواتي عرفن بجمالهن ودهائهن مثل قمر البغدادية التي تغنّت بالعراق وببغداد، وغيرها ممن كان لهن الأثر في قصور حكام الأندلس، وكأن الأندلسيين بذلك جلبوا بنور الحضارة والرقي والتطور لتنبت في الأندلس وتؤتي أُكلها في أوربا، وهكذا انتشرت الثقافة المشرقية والعراقية خاصة في الأندلس، ويبدو ذلك بشكل واضح عند الاطلاع على الأدب الذي كُتِب في بداية فتح الأندلس الذي كان موافقًا في أغلبه لما هو في المشرق لعدم تفاعل الشعراء آنذاك مع البيئة الجديدة(جنثالث، د.ت، 1)، لكن هذا الحال لم يستمر طويلًا إذ بدأت الشخصية الأندلسية ترتسم ملامحها وتتحدد صفاتها حتى ظهرت شخصيات كان يستهوها ذلك التبجيل للمشرق العربي والاستهانة بالشخصية الأندلسية أمثال يحيى بن حكم الغزال (ت250هـ) الذي صُدم من هذا التهوين والتحقير حينما رحل إلى العراق فحاول إثبات وجوده(التلمساني، د.ت، 2/ 261–261)، وكذلك الأديب ابن بسام الشنتريني (ت542هـ) الذي ألّف كتابًا ضخمًا في الدفاع عن الأندلسيين وتعداد علماء وأدباء الأندلس ونتاجاتهم وأطلق عليه اسم (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) وقد أشار في مقدمته إلى أن سبب تأليفه لهذا الكتاب هو الرد على من يفضّل المشارقة على الأندلسيين(الشنتريني،1981، 12)، وبهذا تحددت ملامح الشخصية الأندلسية وبدأت بالتطور حتى وصلت ذروتها عند لسان الدين بن الخطيب.

- **نبذة من حياة لسان الدين بن الخطيب (**بن الخطيب،**1973، 4/ 374، 1/20–22؛ ابن الخطيب، 2002، 29–30):**

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني، كني بأبي عبد الله، وُلِقب بـ(لسان الدين) وهو لقب مشرقي الأصل للدلالة على فصاحته وبلاغته، وبـ (ابن الخطيب) لأن جده سعيد كان يلقي دروسًا ومواعظ فغلب عليه اسم الخطيب، وأورث هذا اللقب لبنيه،ولابن الخطيب ألقاب أخرى مثل لقب (ذي الوزارتين) لتوأسه وزارتي (السيف والقلم)، وكان رحمه الله مبتلى بداء الأرق الذي استغله في التأليف، ولذا لقب أيضا بـ(ذي العمرين)، كما لقب بـ(ذي الميتتين) و(ذي القبرين) لأنه قُتل بعد محاكمته على

كلمات من الزندقة وجدت في كتبه رغم دفاعه عن نفسه وظهور براءته، ثم أُخرجت جثته وأُحرِقت ثم أُعيد دفنها، وبهذه الطريقة انتهت حياة ابن الخطيب سنة 776هـ.

يعود نسبه إلى عرب اليمن القحطانية، وقد ذكر انتماءاته ومواطنه بأنه قرطبي الأصل، ثم طليطلّيه، ثم لوشّيه، ثم غرناطّيه، ولد بمدينة لوشة سنة 713 هـ، لكنه نشأ بغرناطة، وتأدب على شيوخها فأخذ عنهم القرآن، والفقه، والتفسير، واللغة، والرواية، والطب، وهو وزير، طبيب، أديب، مؤرخ، وفقيه مالكي أندلسي.

كان والده كاتبًا عند سلاطين غرناطة فنشأ ابن الخطيب في حياة مرفهة من مال وجاه وسلطة، ولما استشهد والده خَلَفه في منصبه فعمل كاتبًا عند السلطان أبي الحجاج والد الغني بالله، وتولى أمانة سر أستاذه أبي الحسن الجياب الذي كان يعمل وزيرًا لدى أبي الحجاج، وهناك في دار الإنشاء تلقى ابن الخطيب أرقى أساليب النظم والنثر على يده، وبعد وفاة ابن الجياب بالطاعون خلّفه في رئاستي الكُتّاب وديوان الإنشاء ومُنِحَ رتبة الوزارة وألقابها.

وبعد قتل أبي الحجاج تولى الإمارة بعده ابنه محمد الغني بالله حتى قيام الثورة سنة760 هـ التي أدت إلى إبعاده عن الحكم مع سلطانه الغني بالله، ونفي إلى المغرب مع عائلته حتى سنة 763 هـ حيث عاد مع الغني بالله إلى الحكم في غرناطة وكان شأنه أعلى من ذي قبل، ولكن بعض وجهاء البلاد ممن ساءهم نفوذه راحوا يكيدون له، فنما الخبر الى ابن الخطيب وعزم على الرحيل واستأذن سلطانه في تفقد الثغور الغربية وانحدر الى المغرب حيث وجد فيه كل اكرام، ثم وشوا به الى السلطان الذي سنحت له الفرصة للنيل منه بعد أن وقعت الحرب بينه وبين أحد المتغلبين على المغرب، فظفر فيها الأول واشترط على خصمه تسليم ابن الخطيب، فقبض عليه ثم تم قتله.

ترك ابن الخطيب الكثير من المؤلفات منها ديوان شعر ضخم بقي شاهدًا على براعته، ومؤلفات منها مفقود ومنها أحرق ومنها ما زال مخطوطًا ولم يحقق، ويرجح المستشرق ليفي بروفنسال أن عدد مؤلفات ابن الخطيب قد وصلت إلى ستين مؤلّفا لم يبق إلا ثلثها تقريبًا، ويعد كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) أفضل مصدر وثّق تفاصيل حياته ورحلاته.

(العراق) في شعره:

لم يُذكر في سيرة ابن الخطيب أنه قد رحل إلى المشرق العربي، ومع ذلك أحصينا في ديوانه (ثلاثين) موضعًا ذكر فيه العراق أو أعلامًا مكانية متعلقة به.

فقد وردت لفظة (العراق) في شعره أربع مرات، من ذلك ما ورد في مدحة له لسلطانه أبي الحجاج في عيد الأضحى من عام 739 هـ، وكان غرضه الأساس من هذه المدحة بالذات لفت انتباهه إلى الخطر المحدق به من طاغية الروم الذي عزم على نقض المعاهدات بينه وبين مملكة غرناطة، وهذا ماورد في ذكر مناسبتها، إذ قال(ابن الخطيب، 1989، 2/ 535) : (الكامل)

أبدَتْ مَحَبَّتكَ الْمُـلُوكُ فَإِنَّ مــنْ وَالَاكَ، وَالَى اللَّهَ وَالْإِسْــلَامَا
وَأَتــتْ هَدَايــاهَا إِلَيــكَ فَأَكَــدَتْ بَيْنَ الْقُلُوبِ مَوَدَّةً وَذِمَــامَا
جُرْداً تُلاعِبُ فِي الْحُلِيِّ ظِــلَالَهَا عُقْرَ الْأَدِيمِ تَخــالُهَا آرَامَــا
صبراً عَلَى جَوْبِ الْفَيَافِي وَالسُّرى لا تَسْأَمُ الْإِسْرَاجَ وَالإِلْجَامَا
صحب الركائب والحمول حديثها حتى تجاوز (للعراق الشام)

فأشار في البيت الأخير من هذه الأبيات إلى علمي مكانين بارزين في المشرق العربي (العراق، الشام) في سياق المدح السلطاني، وخصهما بالذكر نظراً للقيمة الحضارية لكليهما، إذ كان (العراق) مركزاً للخلافة الإسلامية وحاضرة العلم والعلماء في العصر العباسي، وكذلك (الشام) التي كانت مركزاً للخلافة الإسلامية في عصر الدولة الأموية، وجاء ذكرهما في هذه الأبيات للدلالة على المدى الذي وصل إليه صيت الهدايا التي قدمها الملوك لأبي الحجاج نصرة للإسلام (وأتت هداياها إليك فأكدت بين القلوب مودة وذماماً) وفي ذلك دلالة على مكانة العراق والشام اللذين كانا مركزي الثقافة والأخبار ومنطلقها.

وقد أوضح بأن هذه الهدايا المهداة له هي من الخيول القوية التي لها المطاولة على الركب بحيث تصل إلى هذين البلدين دلالة على قوتها وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾(سورة الأنفال: آية).

فذكر (العراق والشام) في هذه الأبيات دلالة على البعد المكاني فضلاً عن قوة الخيل المهداة (لا تسأم الإسراج والإلجاما) مطيلاً في التعبير عن ذلك لما يوائم مناسبة القصيدة في التنبيه على الروم، وقد يكون في ذكر (العراق والشام) نسق مضمّر يتعدى البعد المكاني إلى البعد الزماني للتأسي بحاليهما؛ فالعراق يحمل دلالة المدى القريب من الزمن، في حين (الشام) تحمل دلالة البعد الزمني الأبعد، فالربط الحاصل بينهما هو علاقة تراتبية زمنية تحذيرية من الخطر الذي حدث في الماضي القريب والبعيد أيضاً، وهذا يعلل تقديمه العراق على الشام مقدمًا لفظاً متأخراً محلاً (حتى تجاوز للعراق الشام) وكأنه يقول له: انتبه فأنّ ممالك عظيمة لها تاريخ إسلامي وحضاري عريق قد انهارت ودُمّرت معالمها فاحذر من ذات المصير، إذ سقطت بغداد بيد هولاكو عام 656 هـ(السقاف واخرون، د.ت موقع انترنت)، وقد سبقتها الدولة الأموية في بلاد الشام عام 132 هـ(خلدون، 2010، 246).

ومن الناحية التحفيزية وظّف (حتى) التي تستعمل لانتهاء الغاية في السياق التركيبي ليوحي بطول المسافة التي قطعتها الركائب والحمول وهي تتحدث عن شجاعة و مآثر سلطان غرناطة (أبي الحجاج) ووفاء الأمراء له من (الأندلس) موطنه الأصلي ومروراً بالشام وصولاً إلى العراق، وعن محاولاته المستميتة للدفاع عن الإسلام والأندلس وتحالفه مع ملوك المغرب ليشنوا من أزره، وتذكيراً له بمكانته في العالم الإسلامي، وقد أضفى

على (العراق) مؤكداً آخر وهو اللام (للعراق) التي تستعمل لانتهاء الغاية أيضاً(ابن عقيل، 1980، 17/3)، فلا يستبعد ابن الخطيب من تكرار الأحداث ذاتها (وخاصة أنه مؤرخ قد غاص في ثنايا التاريخ).

ومما يثير الانتباه في شعر ابن الخطيب هذا الترابط بين ذكر (العراق) و(الشام)، إذ نجده في قصيدة أخرى يذكرهما سوية بالدلالات ذاتها، وهذه المرة في رثاء شيخه الشاعر ابن الجياب الذي تتلمذ على يديه، وذلك في قوله(بن الخطيب، 1989، 2/ 709):

أَمَّا وَقَدْ أَوْدَى أبو الْحَسَنِ الرِّضَا فَالْفَضْلُ قَدْ أَوْدَى عَلَى الْإِطْلَاقِ

كَنْزُ الْمَعَارِفِ لَا تَبِيدُ نُقُودُهُ يَوْماً، وَلَا تَفْنَى عَلَى الإِنْفَاقِ

مَنْ لِلْبَدَائِعِ أَصْبَحَتْ سَمَرَ السُّرَى ما بَيْنَ (شام)، في الورى وَ(عِرَاقِ)

فبدائع ابن الجياب أصبحت لشهرتها وذيوع صيتها مما يتسامر به الرحالة في رحلاتهم إلى (العراق والشام) ومابينهما، واختارهما لبعدهما الجغرافي ولكونهما محط أنظار الجميع في الأدب.

كما نجد للسان الدين بن الخطيب قصيدة ثالثة يذكر فيها (العراق والشام) سويةً أيضاً في سياق النص الشعري الرثائي عند مقتل أبي الحجاج وشدّة حزنه عليه، فعمد إلى بيان عِظَم الوقع عبر رثائه بشكل يصور حجم الفاجعة التي حلت على المشرق والمغرب معاً فاشركهما في الحزن كما أشركهما في المدح في الأبيات السابقة، وذلك في قوله(بن الخطيب، 1989، 2/ 556): (الكامل)

فُجِعَتْ بِهِ الدُّنْيَا وَكُدِّرَ شِرْبُهَا وَشَكَا الْعِرَاقُ مُصَابَهُ وَالشَّامُ

أَسَفاً عَلَى الْخُلُقِ الْجَمِيلِ كَأَنَّمَا بَدْرُ الدُّجُنَّةِ قَدْ جَلاَهُ تَمَامُ

ومن خلال قراءة على قصيدة المدح السابقة والمكانة التي كان يتمتع بها أبو الحجاج سلطان غرناطة عند الملوك المسلمين، فليس بالغريب من أن تُفجَع بلدان بعيدة مثل (العراق والشام) لوفاته، وربما كانت كنيته (أبو الحجاج) تذكّر بالحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الأموي الذي أحكم قبضته على العراق بعد كثرة المتمردين فيه، والذي عُرف ببطشه وظلمه وقد امتد أذاه إلى الشام نظراً لوجوب رجوعه إلى السلطة مركزية والخليفة في بلاد الشام، فيذكر ابن الخطيب محاسن أبي الحجاج في غرناطة ويشير ضمنياً إلى الحجاج في العراق والضد يبرزه الضد، فهما بالاسم ذاته لكنهما يختلفان في خُلقهما ومحبة الناس لهما، فيحكى أن الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين في بلاد الشام قال عنه حين موته: " مات الحجاج وولّيتُ مكانه يزيد بن أبي مسلم، فكنت كمن سقط منه درهم فأصاب دينارا"(الأندلسي، 1404هـ، 5/ 314)، وكان هذا الخليفة قد ضاق منه ذرعاً، ويُروى أن عمر بن عبد العزيز سجد شكراً لله حينما بلغه موت الحجاج، والأدهى من ذلك أنه تمنى له الموت على فراشه ليكون عذابه عند الله أشد(الأندلسي، 1404هـ، 5/ 314–315)، وهذه المواقف تعطينا فكرة عن مدى كره العراق والشام للحجاج بن يوسف الثقفي، فأجرى مقارنة ضمنية بين الحالتين للعلم المكاني (العراق) الأولى عند موت حاكمه الحجاج حيث الفرح والاستبشار، والأخرى عند مقتل أبي الحجاج سلطان غرناطة (فُجِعَتْ بِهِ الدُّنْيا وَكُدِّرَ شِرْبُهَا) إلى حد أن شكى (العراق والشام) ما حلّ بهما حزنًا على موته.

وأراد بلفظة (شكا العراق مصابه والشام) تخصيصاً لهما، جاعلاً الحزن لموته لا يقتصر على الأندلس فقط بل يمتد ليشمل المشرق العربي أيضاً، وفي ذلك تأكيد على أن العلاقة بين الأندلس والمشرق قوية، وبينهما تآزر رغم البعد الجغرافي.

أما من الناحية الصوتية لكلا القصيدتين فنلاحظ اختيار الوزن والقافية نفسيهما مع اختلاف الغرض الشعري، ونظمه للقصيدتين بوزن البحر الكامل ساعده على التفصيل في ذكر مآثر أبي الحجاج التي وصلت إلى العراق والشام من خلال مدحه ورثائه، وهو بحر يتسم بالمرونة والصلاحية لكل الأغراض الشعرية(خلوصي، 1977، 95)، وقد ساهمت القافية المطلقة المسبوقة بحرف المد في التعبير عن امتداد المدح وعن كثرة الألم لفراقه أيضًا.

كما ذكر ابن الخطيب (العراق) في مقدمة تضمنت موقف وداع لقصيدة أنشدها لأحد ممدوحيه في يوم النوروز الموافق لعام 740هـ ذاكرًا من خلالها الوقيعة بأحد أمراء الأندلس، جاء فيها(بن الخطيب، 1989، 2/ 673):

أُخِلايَ، هَلْ طَـعْمٌ أَمَرُّ مِنَ النـَّوَى	**وَأَفْضَـعُ خَطْباً مِنْ مُفـَارَقـَةِ الإِلْف؟**
وَلَـمْ تَـكُ إِلا سَـاعَةٌ وَتَسَنَّمَـتْ	**ظُهُورَ الْمَطَايَا، كُـلُّ فَانـِيَةِ الطَّـرْفِ**
وَدَارَتْ عَلَى الرَّكْبِ الصَّوَارِمُ وَالْقَـنَا	**وَجُرْدُ الْمَذَاكِي مِنْ أَمَامٍ وَمِـنْ خَـلْفِ**
أَمَالُوا السَّرَى قَصْدَ (الْعِرَاقِ) وَأَزْمَعُوا	**عَلَى مَهْمَهٍ تَسْفي بِهِ الرِّيحُ مَا تَسْفِي**
وَدَلَّ عَلَيْهِـمْ مَنْ تَخـَلَّفَ مِنْـهُمُ	**بِمَا أُودِعُوا طِيب النَّسِيمِ مِنَ الْعـَرْفِ**
فَلا عَـهْدَ إِلَّا بِالْخَيـَالِ وَبِالْمـُنَى	**وَلَا وَصـْلَ إِلا بِالرَّسـَائِلِ وَالصـُّحْفِ**

فالحبيبة في هذه القصيدة حزينة لفراق حبيبها شاكية أمرها لصاحباتها،راحلة إلى (العراق) على خيل قوية وسريعة محفوفة بالسيوف والرماح من أمامها ومن خلفها دلالة على منع الوصول إليها، مؤكدًا من خلال ذكر وجهة السفر إلى (العراق) على البعد المكاني الذي فصلها عنه ويأسه من إمكانية الوصول إليها واللحاق بالظاعنين، مؤكدًا ذلك بقسوة الطريق الصحراوي (المهمه) الذي تسف فيه الريح التراب، فلم يعد باستطاعته الوصول إليها إلا بالخيال والأماني، أو الرسائل المتبادلة بينهما.

ويبدو أنه خص (العراق) بالذكر لإضفاء الفخامة على الحبيبة وتوجهها لما كان يتمتع به هذا البلد من مكانة ثقافية وحضارية بحيث تشد إليه الرحال.

وربما يتكرر ذكر (العراق) في هذه القصيدة بالذات لتعلق مناسبتها بيوم نوروز أو نيروز؛ إذ اختار النبي إبراهيم عليه السلام حين كان في بابل في العراق يوم نوروز لتحطيم الأصنام،وهذا يدل على أن الاحتفال بهذا اليوم كان عندهم لمجيء الربيع كان قبل هذه الحادثة، إن أكراد العراق يحتفلون به لما يروى في الأساطير من أن رجلاً كرديًا يدعى كاوى الحداد انتصر على الملك الشرير زهاك فقتله بمطرقته وشعل قصره وحمل شعلة بيده دليلاً على انتصاره وهي شعلة الحياة، فصار يوم 21 آذار يوم النصر على الظلم والنور على الظلام،

ويرتبط هذا التاريخ أيضًا بالسومريين الذين يقال بأنهم أول الأقوام الذين احتفلوا بهذا التاريخ وجعلوه بداية التقويم لديهم وكانوا ينصّبون ملوكهم فيه (تاج الدين، 2024، موقع انترنت)، فذكر ابن الخطيب توجه الحبيبة الى العراق وفي قصيدة بمناسبة نيروز لايخلو من هذا الرابط والتأويل.

وفي موضع آخر ضمن شعر لسان الدين بن الخطيب نجده ذكر كلمة (مُعرقين) أي متوجهين الى العراق، كما ذكر (شط الدجيل) و(الجسر) ضمن مقدمة قصيدة في تهنئة السلطان أبي الحجاج بمناسبة عيد الفطر يذكر فيها الظاعنين متسائلاً عن متجههم بقوله (بن الخطيب، 1989، 1/ 375): (الطويل)

وإذ زجَروها (مُعْرِقينَ) فهَل سَروا (بشَطِّ دُجيْلٍ) أم أجازوا على (الجِسْرِ)؟

فبدأ قصيدته على نهج الشعراء المشرقيين القدامى بطرح عدة أسئلة استفهامية عن الظاعنين وأين موقعهم موظّفًا عدة أعلام مكانية من المشرق العربي مثل (الأجزاع، السد، تهامة، الحِجر)، ثم تساءل إن زجروا ركائبهم (مُعرقين): أي ذاهبين إلى العراق، وقد جاء بها على وزن (مُفعِلين) وهي جمع مذكر سالم من اسم الفاعل (مُعرِق) من الفعل (أعرَق)، ثم خصص أعلامًا مكانية في العراق هي (شط الدجيل) و(الجسر)، أما (شط الدجيل) فـ :"هو قناة من دجلة كان أبو جعفر المنصور حين بنى بغداد أخرج من دجلة دجيلاً ليسقي تلك القرى"(الحموى، 1980، 234)، وأما (الجسر) فقد " كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة"(الحموي، 1995، 2/ 140)، فتجلت الدلالة المكانية لهذين المكانين في أبيات ابن الخطيب لتحطرحلها في حيز (الحيرة والاغتراب) نتيجة ظعن الأحبة، فالشاعر ربما وظّف (شط الدجيل) ليس لعده نهرًا عراقيًا فحسب إنما استحضره مشبها ظعن الأحبة المرتحل عن روحه وجسده بانشطار شط الدجيل من نهر دجلة، ورمزًا للغوص في أعماق المشرق مما يعزز الشعور ببعده الشاسع عن ديار المحبوبة التي حلّت بها، في حين يعد العَلم المكاني (الجسر) الحد الفاصل بين البعد والقرب، إذ ترمز دلالته المعجمية إلى تعزيز حالة الاضطراب عند الشاعر، فهو لا يدري إن كان هنالك أمل باللقاء مجددًا أم لا؟، فيمثّل عبور الجسر بقوله (أجازوا الجسر) انتقاله من حالة إلى أخرى، من الأمل إلى اليأس والفقدان الحتمي أو العكس.

وفي ذكره هذه الأماكن دلالة على معرفته بمناطق العراق وتفاصيلها رغم أنه لم يرحل فعلاً إليه لكن قراءاته التاريخية يبدو أنها أخذته بالخيال ليتجول فيه وفي غيره من مناطق المشرق العربي، إذ يلحق هذا البيت ذكر أعلام مكانية مشرقية عربية أخرى مثل الشام وعالج والنيل ومصر ومِنى والمقام فضلاً عما تقدم ذكره من مناطق عربية أخرى، مما يثبت تعلقه بهذه البلاد وشغفه بالرحيل إليها لكنه لم يحقق هذه الآمال.

وفي موضع آخر لم يذكر ابن الخطيب لفظة (العراق) وإنما ذكر لفظة (العِرَاقين) في قوله مادحًا النبي محمد(ﷺ)وذاكرًا مدى سعة الفتوحات الإسلامية(بن الخطيب، 1989، 1/ 356):

وفاضَ على الأديانِ دينُكَ واحتَوتْ جنودُك أقصى (الشامِ) و(الصين) و(الهندا)

وأنحَتْ على مُلْكِ (العِراقَين) وانتهت (بتُبَّــتَ) حــتى واجَهَــتْ خيلــها (السَّــدّا)

فمن هذين البيتين نجد شغف ابن الخطيب في توظيف الأعلام المكانية في شعره ذاكرًا ستة منها في بيتين فقط، ومنها ذكر (العِراقين) التي اختُلف في المقصود بها؛ فورد في معجم البلدان والعقد الفريد أن (العراقين) راد بهما البصرة والكوفة، بينما ورد في مصدر آخر أن المقصود بالعراقين هما (عراق العرب) المناطق السهلية بين دجلة والفرات، و(عراق العجم) للمناطق المجاورة لها في إيران(العمري، 1423هـ، 3/ 198)، وأظنه يقصدهما ليدل على اتساع حكم الإسلام شرقًا وغربًا، سابقًا لفظة (العِراقين) بكلمة (مُلك) لتفخيم ماوصلت إليه تلك الفتوحات حتى سيطرت على أعظم حضارتين آنذاك في العراق وبلاد فارس.

- **بغداد:**

ومما يؤكد على اهتمام الأندلسيين عامة وابن الخطيب خاصة بالعراق لعلو شأنه في مجال الحضارة والعمران ذكره لـ (بغداد) ومقارنة غرناطة بها في أبياتٍ ذكرها في عيد الأضحى يستغلها ابن الخطيب لتحقيق أهدافه السياسية في التقرب من السلطان بقصيدة مدحية قال فيها(ابن الخطيب، 1989، 577/2): (الكامل)

عَجَباً لِمَنْ يَغْـتَدُّ دُونـكَ جُنـَّةً وَغِرَارُ سَيْفِكَ فِي يَدِ الرَّحْمَانِ

وَلِمَن عَصَاكَ وَظَنَّ أَنْ سَتُجِيرُهُ أَنْصَارُ جَارٍ أَوْ سَحِيقُ مَكَانِ

لكُمُ بَنِي نَصْرٍ مَآثِرُ لَمْ تَـكُنْ لِبَنِي الرَّشِيدِ وَلاَ بَنِي مَرْوَانِ

بَاهَتْ بِلاَدُكُمُ الْبِلاَدَ فَأَصْبَحَتْ غَرْنَاطَةٌ تَزْهُو عَلَى (بَغْدَانِ)

فهذه الأبيات في محل الموازنة بين البلاد عامة والأندلس خاصة، وترجيح غرناطة على كل ما حولها (مصر، إرم، شِعْب بوان، إيوان كسرى، قصر غمدان)(ابن الخطيب، 1989، 2/ 576) وغيرها من البلدان والمآثر العظيمة، حتى وصل إلى المقارنة بين بني نصر في غرناطة، وبني الرشيد في بغداد، وبني مروان في الشام، فهذه الأسر حكمت العالم الإسلامي بأسره، وكانت بغداد وبلاد الشام أبرز الحواضر في العلم والتطور والعمران في عهدهما، فجعل مآثر بني نصر التي تحكم غرناطة توازي مآثر بني الرشيد وبني مروان، وجعل غرناطة تتفوق عليها، وقد اختص بغداد في عصر الرشيد لأنها كانت عاصمة الدنيا ومحط أنظار العلماء والفقهاء والأدباء، وجاء بلفظ (بغدان) وهو أحد الأسماء التي سُميتْ بها بغداد(الحموي، 1995، 1/ 456)، وقد وظفه بن الخطيب بهذا اللفظ ليوافق القافية النونية، كما أن له دلالة على تعمقه بالثقافة المشرقية، ولم يكتفِ بالثقافة الظاهرة فقط فلم يذكر الاسم الظاهر(بغداد) المعروف للجميع بل تعداه إلى اسم لا يعلمه إلا باحث متعمقٍ شغوف، وينم عن عقدة النقص عند الأندلسيين في تفضيل المشرق عليهم وقد ذكر هذا ابن بسام الشنتريني وكان الدافع له لتأليف كتاب الذخيرة(الشنتريني، 1981، 1/ 12).

فهو يذكر بأن (غرناطة) تتفوق على البلاد العربية المشرقية، وفي موضع ذكره لمدينة (بغداد) يجعلها تعلو على (بغداد) وتزهو وتتفضّل عليها، وهذا دليل لما لبغداد من مكانة عظيمة آنذاك بحيث تعد المثل الأعلى لغيرها من المدن التي تود الارتقاء لتزّها علواً من النواحي كلها.

وفي تكرار حرف المد (الألف) في البيت الذي يذكر فيه (بغداد) أعطى بعداً صوتياً يشير إلى الاستعلاء والكبرياء للمدينتين، وبعداً مكانياً ليوافق المقارنة الجارية بين غرناطة وبغداد.

وفي نظرة حزن من ابن الخطيب إلى الشباب الذي انقضى دون تحقيق طموحاته ومنها السفر إلى بغداد قال(بن الخطيب، 1989، 1/ 156): (الطويل)

وقد كان همي أن تعاني مطـيتي ببعض نبات النيل خوض عُباب
وَأُضْحِي وَمِحْرَابُ الدُّجَى مُتَهَجِّدِي وَأَمْسِـي وَمَاءُ (الرَّافِدِيْنِ) شَرَابِي
وَتَضْحَكُ مِنْ (بَغْدَادَ) بيضُ قِبَابها إِذَا مَا تَرَاءَتْ بِالسَّوَادِ قِبَـابِي
وَلَكِنْ قَضَاءٌ يَغْلِبُ الْعَزْمَ حُكْمُـهُ وَيَضْرِبُ مِنْ دُونِ الْحِجَا بِحِجَابِ

برز في هذه القصيدة رثاء الشباب والتحسر على زمنٍ انقضى كانت الصحة والعزيمة في أوج عظمتها، وحب الترحال وكسب المعرفة ولا يكترث لتعبٍ أو مجهود، مركزاً على العلم المكاني (الرافدين) وأراد بهما نهري دجلة والفرات مشيراً بهما إلى أن قوة عطاء الشباب كالنهر الجاري فأجرى مقارنة ضمنية بين زمن الشباب والحيوية، ومرارة المشيب وعجزه، موظفاً طباق الإيجاب في اعطاء فكرة عن سرعة رحيل أيام الشباب (أضحي، أمسي)، فابن الخطيب السياسي والوزير قد تلوثت روحه بالكبر وحب المظاهر الدنيوية، فماء الرافدين رمز للطهر الروحي والتخلص من الأدران التي خلفتها السلطة والمشاحنات السياسية، في حين شكل التضاد اللوني بين (بيض قبابها، سواد قبابي) صورة لونية لقباب بغداد البيضاء مع سواد شعره، فضلاً عن توظيفه للصور بجعل بغداد تضحك مستبشرة بسواد قبابه كناية عن شبابه، فبغداد توحي بالعمق التاريخي والعلمي اللذين جعلاه يروم التوجه إليها قبل رحيل الشباب ولكن قضاء الله كان سريعاً في شيخوخته وثنائه عن تحقيق حلمه.

أما الجانب الصوتي في وصف الشباب والتأسي عليه فعبّر عنه بتكرار واضح لحرف (الباء) لشدته ولرمزه لقوة الشباب وحنينه المستمر لتلك الأيام، وكذلك لأنه حرف انفجاري فنطقه يفجّر طاقة جياشة في داخله تعينه على التعبير عن كل ما مرَّ به من أحداث في حياته الحافلة، في حين أعطت القافية المطلقة المردوفة بالألف وحرف الروي الباء المكسور مداً صوتياً يوافق جريان العمر والحسرة على الشباب الراحل، وقد ساعده اختياره للبحر الطويل في بث شكواه وحزنه، ومع المشاعر المشحونة بالحسرة والألم لا نستغرب من انقباض قلبه كلّما حن لأيام شبابه، فظهر زحاف القبض في أغلب تفعيلات البيت.

- **الحيرة:**

ولابن الخطيب أبيات أخرى في ذكر العراق أو مناطق ضمن حدوده مثل ذكره (الحيرة) في قوله ضمن قصيدة رثى فيها أبو الحسن المريني سلطان المغرب إذ قال(بن الخطيب، 1989، 444/1):(الكامل)

وَالـدَّهْرُ عَنْ فَـتَكَـاتِهِ، لاَ يَنْـثَنِي وَأَخَـصَّ مَنْ يَشْـقَى بِهِ أَحْرَارَهُ
مَا بَالُ قَيْصَرَ إِذْ جَفَـتْهُ قُصـورَهُ؟ لم تـغنِ عنه طِـوالُه وقصـاره
مَا بَالُ كِسْرَى لَمْ يُـدَافِعْ سُـورُهُ؟ عَـنْهُ الرَّدَى، يَوْماً، وَلاَ إِسْـوَارَهُ

وَاسْأَلْ عَنِ (النُّعْمَانِ) (حِيرَتَه) وَقَدْ عَشِقَ الشَّقِيقَ الْغَضَّ فَهْوَ شِعَارُهُ
شَقَّتْ عَلَى مَنْعَاهُ حُـــمْرُ قِبَــابِهِ وَشَقـــيقُهُ أَلِفَ الذَّرَى، وَبَهــارُهُ

جاء توظيف العلم المكاني (الحوة) بعد سردٍ تاريخي لملوكٍ شهد التاريخ لهم بالعظمة متأسيًا بموتهم ضمن رثاء السلطان أبو الحسن المريني " أشهر ملوك بني مرين، وأبعدهم صيتا، وكان قد ملك رحمه الله تعالى المغرب بأسره وبعض الأندلس، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب"(التلمساني، د.ت،6/ 214)، ولم يكن ذلك المُلك مانعًا له من الموت كما لم تحمِ قصور قيصر المنيعة من أن يخترقها جيش الدهر بسهامه، وكذلك سور كسرى المنيع، أما (الحوة) فتعد من أعظم الممالك العربية في المشرق العربي قبل الإسلام وقد اشتهرت بالنعمان بن المنذر آخر ملوك المناذرة حتى كانت تسمى بـ (حوة النعمان)(بيومى، د.ت، 519)، ولهذا جاء ذكرها في هذه الأبيات (اسأل عن النعمان حيرته) فنسب (الحوة) للنعمان مؤرياً عن (الحوة) اسم العلم المكاني بذكر الحوة من احتار، إذ يحتار المرء من فناء تلك الأملاك العظيمة ووفاة ملوكها، إذ اشتهرت بجمالها و طيب هوائها ونقاء مناخها حتى قيل فيها " يوم وليلة في الحوة خيرٌ من دواء سنة"(بيومى، د.ت، 519)، ولكنها فنيت ولم يبقِ منها شيءٌ، فجاءت دلالتها تحمل معنى الأبهة والجمال والمنعة الذي آلت إلى الزوال والفناء لتتوافق مع غرض القصيدة (الرثاء)، وفي ربطٍ سياقي أبلغ وأعمق جاء بذكر (النعمان) بعد ذكر كسرى ليشير إلى تلك الحرب التي دارت بينهما بسبب رفض النعمان تزويج ابنته لكسرى مما أدى إلى غضب كسرى على النعمان ودفعهِ إلى حبسه وقتله(الحموي، 1995، 4/ 294)، وفي النهاية كان مصير كليهما الفناء، فوظَّف هذه الأمثلة في السياق الرثائي ليعطي بعداً فلسفياً أعمق بأن الموت والزوال مصير محتوم على الجميع، فشخّص العلم المكاني (الحوة) في (اسأل عن النعمان حيرته) عبر فعل الأمر (اسأل) الذي يصدره المتكلم ويتوجه به نحو المخاطب ليسأل الحوة عن النعمان الذي عشق نبات الشقيق وعُرِف باسمه (شقائق النعمان)(ابن منظور، 1414هـ، 12/ 588) لشدة حبه له وحرصه عليه، وربما نظراً للترابط المعنى بين النعمان الذي يعني الدم، واللون الأحمر للشقيق سمي باسمه(ابن منظور، 1414هـ، 12/ 588)، وكذلك القباب الحمراء التي ترمز للسيادة والسلطان آنذاك(علي، 2001، 11/ 370)، فهذا التوافق والانجذاب خلق بينهم ترابطًا روحيًا، ولكن الزمن هو العابث النوعي لم يترك شيئًا على حاله فانهارت القباب ومات النعمان وفنيت الحوة وبقي الشّقيق شاهدًا على التاريخ الحافل في الوقت الذي كان الحكم متألقًا (وشقيقه ألف الذرى وبهاره) ليثبت أن أرض الحوة تتجدد زهورها ونباتها دلالة على أنها رغم موت ملكها متجددة عبر العصور.

أما الجانب الصوتي فقد شكل تكرار حرفي (ق/ ش) في البيتين اللذين ذكر فيهما الحوة في (عشق، الشقيق، شقّت، قبابه، شقيقه) وما فيها من تضاد بين الهمس والشدة(عبد اللطيف، 1428هـ، 10)، القوة والضعف فهي إشارة لحياة النعمان إذ بعد أن كان ملكًا يشار له بالبنان أضحى أسيراً عند كسرى الذي سجنه وقتله(الحموي، 1995، 4/ 294)، وكذلك أبو الحسن المريني بعد أن ملك المغرب وبعضًا من الأندلس غدر به بنو عبد الواد الذين أخذ منهم أبو الحسن المريني تلمسان(التلمساني، د.ت، 6/ 214)، في حين أضفى

الجناس الناقص بين الألفاظ (قيصر/ قصوره) (شَقّتْ/ شقيقه) (قصور/ سور) جرساً موسيقياً سلساً يطرب السامع، وقد ساهم البحر الكامل في جعل الصورة الشعرية أقرب ميلاً إلى السردية لاتساعه فمنح صوراً وصفية دقيقة، كما أضفى الإضمار على التفعيلة بطئاً على السرد

- **سنداد والخورنق:**

بالفكرة ذاتها وجدنا لابن الخطيب أبياتاً يذكر فيها اعلاماً مكانية في (العراق) ضمن قصيدة يرثي بها صحباً له توفوا بأوقات متقاربة إذ قال(ابن الخطيب، 1989، 2/ 627): (الطويل)

وكم أخلفت شتَّى المنى من خليفةٍ وأذوت رياح الدهر أَذواء تيجان
وَغَادَرَتِ القَصر الْمَشِيدَ بِنَاؤُهُ (بِسَنْدَاد) قُفْرا بَلْقَعاً بَعْدَ عُمْرَان
وَلو تُبْق يَوْماً (لِلْخَوَرْنق) رَونَقاً وَلَا شَعَبَتْ مَا اخْتَلَّ مِنْ شِعْبِ بَوَّانِ

ولأن الغرض رثائي فهو يوظف الأعلام المكانية الشاخصة التي كانت يوماً من الأيام تضرب بها الأمثال لعظمتها ولجمالها ودقة عمارتها ويتساءل أين هي اليوم؟، فيعرض ثقافته التاريخية وسعة علمه في هذه القصائد، عبر التعمق في الماضي وما يضمه من مآثر ويوظفه في السياق الرثائي، بأخبار عن الدهر الذي زال ملوكًا وممالك كانت لها قيمتها في زمنها، إلا أن يد الدهر قد عبثت بها وأذهبت معالمها ولم تبقِ إلا أسمها تتناقلهُ الأجيال كمثالٍ حي على قوة سطوة الزمن مثل (قصر سنداد) و(قصر الخورنق) و(شَعَبِ بَوَّان)، فجاء بها ابن الخطيب لتضفي دلالة أعمق وايحاءً أقوى للمعنى الذي يتناسب مع مناسبة القصيدة، إذ يقع (قصر سنداد) في موضع قريب من الحيرة(الحموي، 1995، 3/ 266)، أما (قصر الخورنق) فيقع في الحيرة وقد بناه النعمان بن المنذر على طرازٍ فريد من نوعه وأعدم المهندس الذي صممه رمياً من أعلى القصر لكي لا يصمم مثله فضُرِبَ به المثل (جزاء سنمار) وكان يعد محل إقامة لملوك العرب حينما يفدون إلى الحيرة(الحموي، 1995، 2/ 402–403)، أما (شِعْبِ بَوَّانِ) فتعد من أشهر متنزهات الدنيا التي تشتهر بالحسن و كثرة الأنهار والأشجار(الحموي، 1995، 1/ 503).

وأكد بذكره لهذه الأماكن على أن كل شيءٍ مصيره الفناء، وهو مما يعرف بباب التعزية ضمن قصائد الرثاء، وقد أجاد بذكر هذه الأعلام المكانية التي كانت عظيمة في زمنها واندثرت، وإن ذكره لها يؤكد على مدى اطلاعه وسعة ثقافته بما هو متعلق بتاريخ المشرق العربي عامة والعراق خاصة وبما كان يملكه من ثقافة عمرانية.

وفي ذكره لهذه الأعلام المكانية وما كانت عليه وما آلت إليه، وظَّف فنوناً بلاغية مثل توظيفه الطباق في (القصر المشيد) و(قفراً بلقعاً) وهو من طباق الايجاب الذي يقصد به" ما اتفق فيه الضدَّان إيجاباً وسلباً"(وهبة والمهندس، 1984، 233) فهو لا يكتفي بذكر مفردة (القصر) للدلالة على عظمة البناء وإنما يؤكده بذكر (المشيد) أي " إحكامُه ورَفْعُه"(ابن منظور، 1414هـ، 3/ 244)، وفي المقابل يؤكد ما آل إليه ذلك القصر

المشيد من خراب واندثار بذكر لفظي (قفرًا) و(بلقعًا) إذ تدل كلمة قفر على " الخلاءُ مِنَ الأَرض"(ابن منظور، 1414هـ، 5/ 110)، أما كلمة (بلقعًا) فتعني" الأَرض الَقْفْر الَّتِي لَا شَيْءَ بِهَا"(ابن منظور، 1414هـ، 8/ 21).

كما أنه جانس بين (الخورنق) و(رونق) وهو من الجناس الناقص ويعني " هو الذي اختلف فيه المتجانسان في أعداد الحروف "(وهبة والمهندس، 1984، 140)، وكذلك بين (شعبت) و(شَعَب).

وبهذا فقد أثبت ابن الخطيب براعته في ذكر هذه الأعلام المكانية ليس من الناحية المضمونية فقط بل من الناحية الفنية أيضًا بذكرها ضمن السياق الذي اختاره لها، كما ان اختياره للبحر الطويل وزنًا لهذه القصيدة فهو مما وُفِق فيه ايضًا لكثرة تفعيلات وحروف هذا البحر مما يساعد على ذكر التفاصيل لاتساعه إذ يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفًا في حالة التصريع هذا من جهة، ومن جهة أخرى ميله إلى الأسلوب القصصي(خلوصي، 1977، 43–44) الذي يثبت أن كل شيء إلى فناء مثل تفصيله وتعداده لهذه الأعلام المكانية وما آلت إليه.

- **الأنبار وذي قار:**

وفي موضع ثالث ضمن مدحه لأبي الحجاج أيضًا ذكر (الأنبار) و(ذي قار) ليكمل السلسلة التاريخية المتعلقة بالعراق والتي ابتدأها بذكر (الحيرة) و(النعمان) مرورًا بقصر (الخورنق)، إذ قال فيها(بن الخطيب، 1989، 1/ 370): (الكامل)

إن راع خطــب أو عرا جــدب ترى كفّـــاه تدرأ ذا، وذاك تـــداري
لو كان في (جعفر الهباءة) ماثلاً لَعَدَا على النقد الهزبر الضــاري
أو كان في (قنص بن معد) ثاوياً حكم (ابن زنباع) رهين إســـار
ولما تلاشوا جُفلا ورمــت بهــم أيدي (النبيط) أقاصي (الأنبار)
أَوْ أمّهُ عمرو بن ذهلٍ ما طفت مُهجات صبيتهِ على (ذي قار)

مرة أخرى أبحر ابن الخطيب بمخيلته نحو التاريخ واصطاد منه وقائع في المشرق العربي تثبت تعمقه في سبر أغوارها ومعرفة دقائق أحوالها فذكر (الأنبار) وما حصل من نزاع عليها بين ربيعة بن نزار والأنباط وأنتهى بغلبة أهل الأرض من الأنباط عليها، كما ذكر من أعظم أيام العرب(بيومى، د.ت، 225) في الوقعة الشهيرة بـ (ذي قار) التي حدثت بعد موت النعمان(الحموي، 1995، 4/ 294–295) بعد تلك المبالغة من سطو الفرس على العرب، لكنه ينتقد خطة عمرو بن ذهل أحد أبرز القادة في المعركة بأن جعل الأطفال والنساء في الصف الثاني للجيش لتحفزهم على القتال مما عرضهم للخطر، ويقول لو أن الممدوح أبا الحجاج كان قائدًا لما عرّض الصبية للخطر وماتوا في (ذي قار)، تبرز نزعة التفوق الأندلسي على المشرقي فلو كان الممدوح أبو الحجاج موجودًا في تلك الوقائع لما حدثت فيها هنات.

وقد أجاد ابن الخطيب في توظيف العلم المكاني (ذي قار) والانتصار في تلك المعركة التاريخية التي ظل العرب يتغنون بها، وفي الجانب الآخر أراد الإشارة إلى وضع مملكة غرناطة وإلى تحكم الفرنجة بالأراضي

الأندلسية وازدياد نفوذهم يوماً بعد يوم، وأنّ أبا الحجاج سيحقق انتصاراً عليهم يعد الأول بعد سلسة من الهزائم التي مُنيت بها الأندلس وضياع أغلب مدنها، كما حققه العرب في سالف الزمان، فابن الخطيب يغوص في التاريخ ليبحث عن درره المكنونة ليبث الأمل بالمستقبل وكأنّ التاريخ المشرقي النافذة التي تهوّن عليهم خسراتهم المتلاحقة.

فضلاً عن أنه يؤكد على هوية أبي الحجاج العربية التي يعود بها إلى التاريخ المشرقي فخراً واعتزازاً، وقد وظّف ابن الخطيب ما يسمى الإلماع الأدبي أو التلميح لكل وقعة من تلك الوقائع، ولكل مكان حدثت فيه، وهو توظيف يثبت الإمكانات الأدبية والثقافية التي يتمتع بها هذا الأديب الألمعي من الفطنة والإبداع.

- **كربلاء:**

وفي موضع آخر من شعر لسان الدين ابن الخطيب يشير إلى (كربلاء) التي هي من مدن العراق وهو يذكر غرناطة أيضاً، حيث تدور الأيام وتتقلب القلوب ويصبح الصديق عدواً والقريب بعيداً، فبعد طول العمر الذي قضاه ابن الخطيب في كنف السلطان أبي الحجاج وابنه والمكانة العالية التي حاز عليها، اشتعلت نار الغيرة والحسد ممن هم أقل حظوة منه فبدؤوا ينسجون المكائد للإيقاع به، ودُست المكائد له ونجحوا في مبتغاهم بإبعاده عن غرناطة إذ فر هارباً إلى المغرب، وأمست غرناطة حلماً يداعب مخيلته ونغماً يترنم به حزناً وشوقاً وعتاباً، إذ قال(ابن الخطيب، 1989، 2/ 773): (المتقارب).

جَـزَتْنيَ غَرْنـاطَةٌ بـعْدَ مـا جَلَوْتُ مَـحاسِنَها بالجَلا
ولمْ تُبْقِ جـاهاً ولا حـرْمَـةً ولـمْ تُبـقِ مـالاً ولا منْزِلا
كأنّي انْفَرَدْتُ بقَتْلِ (الحُسَيْنِ) وجرّدْتُ سَيْفيَ في (كَرْبَلا)
ولمْ أجْنِ ذَنْباً سِوى أنّنـي صدَعْتُ بأمْداحِها في المَلا

فقد وظف العلم المكاني (كربلاء) في سياق حديثه عن (غرناطة)، مستعيناً بتلك الحادثة الشنيعة التي وقعت على أرضها لما تركته من أثرٍ أليم في نفوس المسلمين وهي مقتل الحسين (عليه السلام)، فضرب بها المثل، وفي ذكره لفظة (كربلاء) إلماع أدبي يشير إلى الملحمة الكبرى والأحداث التي وقعت فيها، أما عن لفظة كربلاء فقد أتت تعني في معجم البلدان من " الكربلة رخاوة في القدمين... تكون أرض هذا الموضع رخوة"(الحموي، 1995، 4/ 445) فبعد تلك المكانة العليا في غرناطة، صارت مصدراً للخوف والترقب، وقد قرنها بـ (كربلاء) التي كانت مثالاً شاهداً على النكران والغدر والمأساة التاريخية التي تركت أثرها في نفوس المسلمين، مُحاولاً إيصال فكرة إلى سلطان غرناطة يتساءل فيها عن الذنب الذي اقترفه ليلقى هذا الجزاء، فيتحدث عن (غرناطة) حديث مُحِبٍ عاتبٍ خاب أمله بمَن أحب، بعدما جلا محاسنها بقصائده المدحية التي تفيض رقة وجمالاً كما يُجلى الذهب من الشوائب فأعطى صورة بلاغية استعارية لغرناطة واختار لها الفعل (جلوت) والذي يعني "جَلَّى الشيءَ أي كَشَفَهُ"(ابن منظور، 1414هـ، 14/ 150)، بأدبه وعلمه ومؤلفاته، مذكّراً بأعماله التي قام بها خدمة لوطنه، فغرناطة كانت كجيشٍ غازٍ سُلِبت منه الهيبةَ والكرامة والمال والجاه، وكأنه

حَمل ذنب مقتل الحسين في كربلاء، وكانت الأعلام المكانية (غرناطة) و(كربلاء) في موضع مقارنة بينهما، وكذلك بينه وبين الحسين(عليه السلام) فكما أعطى الحسين لكربلاء واستشهد في سبيلها فهو اليوم يلقى الجزاء ذاته، فجاء بالعَلَم المكاني (كربلاء) ليحمل الدلالة التاريخية في رسم صورة حجم الذنب الذي عوقب بسببه وجُزِيَ هذا الجزاء.

وقد شكّل حرف (ج، ل) في هذه الأبيات ظاهرة بارزة أعطت فكرة عن حالة القلق التي عاش فيها، فجانس بين (جزتني/ كأني) و(جلوت / جلا) و(مزلا/ كربلا) وكذلك (انفردت / جردت) مانحاً إيحاءً صوتياً بحجم الشعور بالألم والحسرة من خلال مقارنة ما حدث له مع أحداث قد وقعت في الماضي، في حين ساهمت تفعيلات بحر المتقارب القصيرة في سرعة التنقل بين الماضي والحاضر و(غرناطة) و(كربلاء)، فمنحت نغماً صوتياً يرمز إلى التخبط واضطراب المشاعر إذ لا يثبت على حالة واحدة.

بابل:

وقد غاص ابن الخطيب مرة أخرى في مخيلته واستخرج من درها كنزاً صاغ منها وصفاً وردّاً على قصيدة أستاذه أبي الحسن الجياب، موظّفاً في أبياته اسم العلم المكاني العراقي (بابل) في السياق الشعري بقوله(ابن الخطيب، 1989، 109/1): (الكامل)

زَارَتْ وَقَدْ صَرَفَ العِنَانَ الغَيْهَبُ	**وَالصُّبْحُ يُنْشَرُ مِنْهُ بَنْدٌ مُذْهَبُ**
وَالزَّهْرُ فِي نَهْرِ المَجَرَّةِ بَعْضُــهَا	**يَطْفُو بِصَفْحَتِهَا وَبَعْضٌ يَرْسُبُ**
وَكَأَنَّــمَا الفَلَكُ المُكَوْكَبُ غَــادَةٌ	**زُفَّتْ وَحَلَّ لَهَا الحُلِيَّ المَــغْرِبُ**
وَالدَّوْحُ صَلَّى بِالتَّــحِيَّاتِ الَّتِــي	**أَلْقَى بِمَسْمَعِهِ النَّسِيْمُ الطَّــيِّبُ**
وَالطَّيْرُ قَدْ نَفَضَ الجَنَاحَ مُؤَذِّناً	**وَالْوُرْقُ تَتْلُو وَالبَلاَبَــلُ تَخْطُبُ**
بِكْرٌ مِنَ السَّحْرِ الحَلالِ (بِبَابِلٍ)	**تُنْمَى إِلَى هَارُوتِهِ إِذْ تُنْســـَبُ**

فقد مدح قصيدة أستاذه وجمالها واختار لها الرد عليها (البحر الكامل) ليعطي إيحاءً صوتياً يطرق السمع ويوحي بالكمال، فقد ذكر (بابل) في البيت السادس من هذه القصيدة لاقترانها بالسحر مقدّماً لها بمقدمة جميلة، فقد ابتدأ القصيدة بقوله (زارت) مشخّصاً لقصيدة ابن الجياب التي وصلته بأن أوكل الزيارة لها وليس لمن سلمها له، ثم يشاطر الطبيعة فرحه بوصولها بين يديه واصفاً إياها بأجمل الصور والأخيلة التي توحي ببهجة أسراره حين وصول القصيدة بين يديه حيث وثّق وصولها باكراً حينما انشق الفجر مصوّراً القوس الذي أتى بها وكأنه قد صرف ظلمة الليل الشديدة ثم شخّص الصبح بجعله ينشر الأشعة الذهبية، ثم شبّه النجوم بالأزهار على حافة المجرة في السماء وبعضها قد غرق فيه، كما صور الفلك والكواكب مشبّهاً إياها بالفتاة الناعمة الرقيقة التي زفت متحلية بالحلى المتلألئة وقت الغروب، ثم ينزل بالصورة البصرية تدريجياً من السماء إلى تصوير الشجر العظيم والطير والنسيم والحمام والبلابل في لوحة خيالية بديعة تصورهم وكأنهم يبتهلون فرحاً، فالروح صلى بالتحيات بعدما ألقى بمسمعه النسيم الطيب، والطير مؤذّن، والحمام تتلو والبلابل تخطب، وصولاً إلى

ذكر الغرض الأساس من القصيدة بوصول القصيدة إليه التي وصفها في البيت السادس بأنها (بكر) أي غير مسبوق لمعانيها وألفاظها وصورها كأنها مثل السحر الحلال الذي ينسبه إلى (بابل) ثم ينسب القصيدة إلى هاروت، وقد استلهم من التاريخ مدينة(بابل) وهي كما وصفها ياقوت الحموي ناحية تضم الكوفة والحلة ويُنسَب إليها السحر والخمر(الحموي، 1995، 1/ 309)، وقد ذكر الملكين الصالحين هاروت وماروت في القرآن الكريم أنهما يعلّمان الناس السحر(سورة البقرة، الآية 102)، فقرن بين السحر والعلم المكاني (بابل) بعدّها بؤرة السحر، ومنها انتقل إلى العالم فتنة للناس، فجعل هذه القصيدة في فرادتها وما حوته كأنها علم السحر الذي أوحي إلى هاروت بأمر الله،والسحر يملك العقل ويتمكن من الإنسان وهذه القصيدة تأسر القلب لجمالها فجعلها من السحر الحلال، وجاء بـ(بابل) لحيازتها السبق في هذا الأمر.

منحت حروف الصفير (ص، س، ز) جرسًا داخليًا يمنح الرقة، وقد أجاد في استعماله الجناس الناقص لجعل الأصوات أكثر انسيابية للسامع مثل (حلّ، الحليّ) و(البلابل، بابل)، فضلاً عن اختياره للبحر الكامل الذي أعطى صفة الكمال للقصيدة، أما القافية البائية المطلقة فقد منحت قوة وجمالاً وصرامة على المعنى في حين أضفى كثرة الإضمار الوارد في التفعيلة وقفة تأملية لجمال الطبيعة التكويني في القصيدة.

- **الفرات:**

وقد استشهد ابن الخطيب بنهر(الفرات) في قصيدة يمدح بها أستاذه ابن الجياب ويدعو الناس لحضور مجالس علمه، بقوله(بن الخطيب، 1989، 2/ 736):

ألِمّا على شَطِّ (الفـرُاتِ) الــمقَدَّسِ فخــيْرُ مَقــيلٍ للهُــدَى ومُــعرَّسِ

سَيَهْديكَ عرْفُ الطّيبِ واليومُ شامِسٌ ونارُ القِرَى تدْعوكَ في جُنْحِ حِنْدِسِ

شبّه ابن الخطيب مجالس العلم التي يقيمها شيخه ابن الجيّاب الذي غرف منه الكثير بـ(شط الفرات) لغزارة علمه وتدفق قريحته،واستوحى من التراث الشعري العربي مناداة المثنى للمشاركة في تقاسم المشاعر مع الشاعر مثل ذكر: (قفا، خليليّ، صاحبيَّ)، فبدأ الموقف بذكر (ألِمّا)، وقد وجدنا هذا اللفظ والتوظيف في شعر ابن عبد ربّه الأندلسي (ت328هـ) في قوله(الاندلسي، 2000، 143):

ألِمّا على قصر الخليفة فانظرا إلى مُنية زهراء شيّدت لأزهرا

فإن دعا ابن عبد ربه صاحبيه للوقوف على قصر الخليفة ليتعجبا معه جمال عمارته، فقد دعا ابن الخطيب هنا صاحبيه لأخذ العلم من ابن الجياب، كما أنه أضفى على ذلك ذكر عادات العرب في الجاهلية في إشعال عرف الطيب في النهار، والنار في الليل ليستدل عليهم الغريب وابن السبيل، إلا أنه هذه المرة يستدعيهم إلى ما هو أسمى من ديار المحبوبة وآثار الحجارة المندرسة فيدعوهما إلى الوقوف على أعتاب قامة علمية رفيعة المستوى متمثلة بأستاذه أبي الحسن بن الجياب.

ونلاحظ أنه وصف (شط الفرات) بالمقدّس في إطار تشبيه مجالس علم ابن الجياب به ليضفي على أستاذه الهيبة والإجلال نظرًا للقيمة الدينية والمكانية له، فضلاً عن أنه نهر يشق مسافة كبيرة من أراضي

العواق، فهو من أنهار الجنة الأربعة كما ورد في الحديث النبوي الشريف بقوله (صلى الله عليه وسلم): "فُجِّرَتْ أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ مِنَ الْجَنَّةِ: الْفُرَاتُ، وَالنِيلُ، وَسَيْحَانُ، وَجَيْحَانُ"(بن حنبل، 2001، 12/ 506) لذا وصفه ابن الخطيب بالمقدّس مما يدل على سعة ثقافته الدينية، وليعظم من مجلس علم ابن الجياب وكأنه الجلوس حول نهر من أنهار الجنة لفيض علمه الذي يجود به على طلبته وقاصديه، فجاءت دلالة (شط الفرات) في هذا البيت متجاوزة الحيّز الجغرافي إلى الفضاء الروحي الذي يضفيه مجلس العلم لابن الجياب.

- **خفّان:**

ومن الأعلام المكانية المتعلقة بالعواق في شعر لسان الدين بن الخطيب ذكره (خفّان) في قصيدة مدح بها أبا السالم المريني مهنئًا إياه بفتح تلمسان جاء فيها(بن الخطيب، 1989، 2/ 588):

أَطَاعَ لِسَانِي فِي مَدِيحِكَ إِحْسَانِي ... وَقَدْ لَهِجَتْ نَفْسِي بِفَتْحِ تِلِمْسَانِ
فَأَطْلَعْتُهَا تَفْتَرُّ عَنْ شَنَبِ الْمُنَى ... وَتُسْفِرُ عَنْ وَجْهٍ مِنْ السَّعْدِ حُسَّانِ
كَمَا ابْتَسَمَ (النَّوارُ) عَنْ أَدمُعِ الْحَيَا ... وَجَفَّ بِخَدِّ الْوَرْدِ عَارِضُ نِيسَانِ
كَمَا صَفَّقَتْ رِيحُ الشَّمَالِ شَمُولَهَا ... فَبَانَ ارْتِيَاحُ السكْرِ فِي غُصُنِ الْبَانِ
تُهَنِّيكَ بِالْفُتْحِ الَّذِي مُعْجِزَاتُهُ ... خَوَارِقُ لَمْ تُذْخَرْ سِوَاكَ لِإِنْسَانِ
خَفَقْتَ إِلَيْهَا وَالْجُفُونُ ثَقِيلَةٌ ... كَمَا خَفَّ شَتْنُ الكَفِّ مِنْ أَسْدِ (خَفَّانِ)

فالمعروف عن ابن الخطيب أنه لا يمدح بغية التكسب بقدر ما يوثق ويؤرخ لأحداث تاريخية، وقد عبر في هذه الأبيات عن فرحته باسترداد مدينة (تلمسان) من بني زيان، فأهدى له هذه المدحة التي شبهها ببهجة مظاهر الطبيعة التي شخّصها وجعلها وكأنها مشاركة له في الفرح والسرور فابتسم النّوار، وتمايلت الأغصان بمرونة غصن البان لتتناغم مع ريح الشمال المنعشة، وكأنها تمسك بيدها كأس الخمر وقد ظهرت نشوة السكر والارتياح عليها، في حين أنه يؤكد من خلال السياق أنّ هذا النصر لم يتمكن غيره من احرازه وفق قوله: (تُهَنِّيكَ بِالْفُتْحِ الَّذِي مُعْجِزَاتُهُ/ خَوَارِقُ لَمْ تُذْخَرْ سِوَاكَ لِإِنسَانِ) وقد أوضح النص ذلك من خلال توظيف بؤرة مكانية (خفان) التي كانت مأوى الأسود الضارية وفق ما ذكر ياقوت الحموي بقوله أنه: "موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانا، وهو مأسدة"(الحموي، 1995، 2/ 379)، فيعد استحضارها جسراً لأسطورة الشجاعة في الخيال الوجداني العربي القديم والحدث التاريخي المعاصر، ليمنح الممدوح (أبا سالم المريني) امتداداً لشجاعته التي صبغها بصبغة مشرقية ليضفي عليها هيبة سلطانية.

وفي قوله (خَفَفْتَ إِلَيْهَا وَالْجُفُونُ ثَقِيلَةٌ كَمَا خَفَّ شَتْنُ الكَفِّ مِنْ أَسْدِ (خَفَّانِ) صلة بالمعنى المعجمي الدلالي للفظة (خَفّان) إذ الخِفة خلاف الثقل لتدلّ على الحركة السريعة في الانقضاض على العدو، فأخرجها من معناها الجغرافي الذي يدل على حيزٍ مكاني إلى صفة مدحية لقائد شرس انتزع حكم مدينة (تلمسان) من بني زيان تحقيقًا لحلمه(بن خلدون، 1981، 7/ 166)، فكأنه بهذا التوظيف أخضع الأسود لسيطرته بامتداد ظلّ حكمه.

ومن سياق هذه الأبيات نلحظ نباهة ابن الخطيب في اختيار أسماء الأعلام المكانية في شعره؛ فقافية البيت الأول المنتهية باسم (تلمسان)، بنى عليها القصيدة كلها بما يتوافق مع المناسبة التي قيلت فيها، ثم في ختمه للبيت السادس منها بذكر (خفّان) ليوازي بين هذين العلمين المكانيين للدلالة على صعوبة السيطرة عليهما، وعدّه ذلك من المعجزات والخوارق كما ذكر.

هذا وقد ذكر ابن الخطيب منطقة (خَفّان) في قصيدة أخرى للدلالة أيضاً على كونها موطن الأسود الموعبة لكن حمى الممدوح يبدد الخوف(بن الخطيب، 1989، 2/ 518).

- **السماوة:**

ومن ضمن ما جاء في توظيفه للأعلام المكانية العراقية في شعره ذكره (وادي السماوة) في قصيدة قالها بمناسبة المولد النبوي متحدّثًا فيها عن المعجزات التي أنبأت ولادة الرسول محمدِ (ﷺ)(بقوله(بن الخطيب، 1989، 1/ 227): (الطويل)

وغاضَ بِها (وادِي السّماوةِ) فانْثَنَتْ تقَلّصُ ذَيلَ الخَصْبِ فيهِ المَسارِحُ
وأبْصَرَ سَيْفُ المُلْكِ رُؤْيا فأصْبَحَتْ لــتَذْكارِها تَرْتاعُ مــنْهُ الجــوَارِحُ
وأعْـــلَمَــهُ كَهّــانُـــهُ أنّ أرْضَـــهُ أُتيحَ لَها منْ سَيّدِ العُرْبِ فاتِــحُ
فمَنْ كرَســولِ اللهِ للخــلْقِ ملْــجَأ إذا طوّحَــتْهُمْ للزّمانِ الطـــوائِحُ

وقد ذكر في الأبيات السابقة لهذه معجزات ربانية أخرى موظفًا ذكر الأعلام المكانية التي حدثت فيها مثل انتشار الضوء من شبه الجزيرة العربية حتى وصل حدود الشام في قصور البُصرى، وانهدام إيوان كسرى المعروف بشموخه وارتفاعه واخماد نوران فارس، كلها توحي بعظم هذا الوقع، وبعد أن ذكر الشام وفارس انتقل إلى العراق عبر ذكره (وادي السماوة) الذي يقع بين الكوفة والشام(الحموي، 1995، 3/ 245) كشاهد مكاني على زلزلة النظام الكوني في يوم ولادة الرسول محمد (ﷺ)، فالوادي المعروف بانغضاض وانحسار الماء فيه فاض أمام هيبة الوقع حسب ما ذكر ابن عبد ربه في عقده بقوله" إذا ظهرت التّلاوة وفاض وادي السّماوة، وغاضت بحيرة ساوة"(الأندلسي، 1404هـ، 1/ 294) وينقل الرواية ذاتها الحُموي في الروض المعطار، ويعد ذلك تلميحاً مستقبلياً إلى الانهدام الفكري والقيمي السائد في الجاهلية، وما سيحدثه النبي محمد (ﷺ)من تغيرات جذرية في الحياة العامة والحكم القبلي المستبد والمركزية الوثنية وتعدد الآلهة، فجسّد ابن الخطيب الاضطراب الكوني عبر امتداد الأراضي الخصبة بفعل إفاضة الماء في (وادي السماوة) بعد أن كان جدباً قاحلاً، وهو توظيف يحمل ثنائية (الخصب/ القفر) ليوحي بدلالة خرق المألوف.

الخاتمة:

توصل البحث من خلال الدراسة الدلالية لـ (العراق ومتعلقاته) في شعر لسان الدين بن الخطيب لعدة نتائج، منها مايأتي:

1. ورد ذكر العراق ومتعلقاته في ديوان لسان الدين بن الخطيب في سبعة وعشرين موضعًا مما يؤكد على مكانته في نفس الشاعر.
2. كشف البحث عن القيمة الحضارية للعراق في المخيلة الأندلسية، وفي شعر ابن الخطيب خاصة، إذ يعده مركز الإشعاع الحضاري والعلمي.
3. وظف ابن الخطيب ذكر عاصمة العراق (بغداد) لرفعة شأن (غرناطة) في الأندلس من خلال إثباته تفوق غرناطة عليها وهي في أوج عظمتها من خلال ذكره (لبني الرشيد) حكّام بغداد الذين أوصلوها إلى قمة الحضارة والرقي في عهدهم.
4. استلهم ابن الخطيب من العمق التاريخي للعراق في ذكره (الحيرة والخورنق وذي قار) مظهرًا عظمة حضارتهم ورقيهم ومآل حالهم وما صنعه الدهر بهم، مؤكدًا على قوة سطوة الزمن في فناء أعظم الممالك العربية والمشرقية، مبرزًا من خلالها فلسفة الحياة والموت الذي لا ينجو منه أحد.
5. أسقط ابن الخطيب عواطفه النفسية على أعلام مكانية عراقية لتكون المعادل الموضوعي له مثل تشبيه مأساته الشخصية في الأندلس بأحداث مرتبطة بالتاريخ الإسلامي لمدينة (كربلاء).
6. طوّع اللغة في السياق الشعري لما يخدم المعنى الدلالي للأعلام المكانية المتعلقة بالعراق حسبما أراد الإشارة إليه مسخرًا الفنون البلاغية لخدمة النص مثل (الطباق والجناس) فضلاً عن التنغيم الموسيقي.

قائمة المصادر والمراجع :

- إبراهيم، خليل واخرون (2000) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس. د ط1. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين (1347هـ) اللمحة البدرية في الدولة النصرية. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة.
- ابن الخطيب، لسان الدين (1973) الإحاطة في أخبار غرناطة. ط2. مكتبة الخانجي.
- ابن الخطيب، لسان الدين (1989) ديوان لسان الدين بن الخطيب. ط1. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء .
- ابن الخطيب، لسان الدين (2002) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. ط1. مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة.
- ابن حنبل، احمد (2001) مسند الإمام أحمد بن حنبل. ط1. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- ابن عقيل (ت٧٦٩ هـ) (1980) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. ط20. دار التراث. القاهرة.
- ابن كثير (1358هـ) البداية والنهاية. ط1. مطبعة السعادة. القاهرة.

- ابن منظور (1414هـ) لسان العرب. ط3. دار صادر. بيروت.
- الاندلسي، ابن عبدربه (1404هـ) العقد الفريد. ط1. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الاندلسي، ابن عبدربه (2000) شعر ابن عبدربه الأندلسي. ط1. مكتبة العبيكان.
- بن خلدون، عبدالرحمن (ت808هـ) [العِبَر و] ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. ط1. دار الفكر. بيروت.
- بيومي، محمد (د.ت) دراسات في تاريخ العرب القديم. ط2. دار المعرفة الجامعية.
- تاج الدين (2024) نوروز بين الأسطورة والحقيقة.. تقرير في موقع www.basnews.com.
- التلمساني، شهاب الدين (د.ت) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. دار صادر. بيروت.
- جنثالث، آنخل (د.ت) تاريخ الفكر الأندلسي. نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.
- حاجي، احمد وصبرو، مولود (2022) جمالية الاتزياح في قصيدة "دعاك بأقصى المغربين غريب" لابن الخطيب. جامعة ورقلة الجزائر. 5(2).
- الحموي، ياقوت (1995) معجم البلدان. ط2. دار صادر. بيروت.
- الحميري، عبدالمنعم (1980) الروض المعطار في خبر الأقطار. مؤسسة ناصر للثقافة. بيروت.
- الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ) (1986) شذرات الذهب في أخبار من ذهب. دار ابن كثير. دمشق.
- خلدون، محمد (2010) تعدد الخلفاء ووحدة الأمّة فقهًا وتاريخًا ومستقبلا.
- خلوصي، صفاء (1977) فن التقطيع الشعري والقافية. ط5. منشورات مكتبة المثنى. بغداد.
- خليل، سامي (2022) مظاهر الحضارة العراقية في الأندلس (138. 422 هـ / 755. 1031 م). مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية. 29(11).
- راضي، مهند (2022) الرحلات العلمية من الأندلس إلى العراق ومصر من خلال كتاب جذوة المقتبس للحميدي (ت ٤٨٨هـ). مجلة سر من رأى. جامعة سامراء. 18(71).
- السقاف، علوي (د.ت) الموسوعة التاريخية. متاح على الموقع: dorar.net.https://shamela.ws/book/95543.
- الشنتريني، أبو الحسن (1981) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ط1. الدار العربية للكتاب. ليبيا.
- عبداللطيف، عبدالشافي (1428هـ) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي. ط1. دار السلام. القاهرة.
- علي، جواد (2001) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط4. دار الساقي. بيروت.
- العمري، شهاب الدين (ت 749هـ) (1423هـ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. ط1. المجمع الثقافي. أبو ظبي.
- المعجم الوسيط (د.ت) ط2. مجمع اللغة العربية. القاهرة.

❖ وهبة، مجدي والمهندس، كامل (1984) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. ط2. مكتبة لبنان. بيروت.

Bibliography of Arabic References (Translated to English)

- Ibrahim, Khalil, et al. (2000) *The History of the Arabs and Their Civilization in Andalusia*. 1st ed. Dar al-Kitab al-Jadeed al-Muttahida. Beirut.
- Ibn al-Khatib, Lisan al-Din (1347 AH) *Al-Lamha al-Badriyya fi al-Dawla al-Nasriyya*. Al-Matba'a al-Salafiyya wa Maktabatuh. Cairo.
- Ibn al-Khatib, Lisan al-Din (1973) *Al-Ihata fi Akhbar Gharnata*. 2nd ed. Maktabat al-Khanji.
- Ibn al-Khatib, Lisan al-Din (1989) *Diwan Lisan al-Din Ibn al-Khatib*. 1st ed. Dar al-Thaqafa lil-Nashr wa al-Tawzi'. Casablanca.
- Ibn al-Khatib, Lisan al-Din (2002) *Mi'yar al-Ikhtiyar fi Dhikr al-Ma'ahid wa al-Diyar*. 1st ed. Maktabat al-Thaqafa al-Diniyya. Cairo.
- Ibn Hanbal, Ahmad (2001) *Musnad al-Imam Ahmad Ibn Hanbal*. 1st ed. Mu'assasat al-Risalah. Beirut. 7. Ibn Aqil (d. 769 AH) (1980) Ibn Aqil's Commentary on Ibn Malik's Alfiyya. 20th ed. Dar al-Turath. Cairo.
- Ibn Kathir (d. 1358 AH) Al-Bidaya wa'l-Nihaya. 1st ed. Matba'at al-Sa'ada. Cairo.
- Ibn Manzur (d. 1414 AH) Lisan al-'Arab. 3rd ed. Dar Sader. Beirut.
- Al-Andalusi, Ibn 'Abd Rabbih (d. 1404 AH) Al-'Iqd al-Farid. 1st ed. Dar al-Kutub al-'Ilmiyya. Beirut.
- Al-Andalusi, Ibn 'Abd Rabbih (2000) The Poetry of Ibn 'Abd Rabbih al-Andalusi. 1st ed. Maktabat al-'Ubaykan.
- Ibn Khaldun, 'Abd al-Rahman (d. 808 AH) Al-'Ibar wa Diwan al-Mubtada' wa'l-Khabar fi Tarikh al-'Arab wa'l-Barbar wa man 'Asarahum min Dhawi al-Sha'n al-Akbar. 1st ed. Dar al-Fikr. Beirut.
- Bayyumi, Muhammad (n.d.) Studies in the History of the Ancient Arabs. 2nd ed. University Knowledge House.
- Taj Al-Din (2024) Nowruz Between Myth and Reality... A report on www.basnews.com.
- Al-Tilimsani, Shihab Al-Din (n.d.) The Fragrant Breeze from the Moist Branch of Andalusia. Mention of its Minister, Lisan Al-Din Ibn Al-Khatib. Dar Sader. Beirut.
- Gonzalez, Angel (n.d.) History of Andalusian Thought. Translated from Spanish by Hussein Mounis. Library of Religious Culture. Cairo.

- Haji, Ahmed and Sabro, Mawloud (2022) The Aesthetics of Deviation in Ibn Al-Khatib's Poem "A Stranger Called You from the Farthest West". University of Ouargla, Algeria. 5(2).
- Al-Hamawi, Yaqut (1995) Dictionary of Countries. 2nd ed. Dar Sader. Beirut.
- Al-Himiri, Abdul-Munim (1980) The Fragrant Garden in the News of the Lands. Nasser Foundation for Culture. Beirut.
- Al-Hanbali, Abu al-Falah (d. 1089 AH) (1986) *Shadharat al-Dhahab fi Akhbar man Dhahab*. Dar Ibn Kathir. Damascus.
- Khaldoun, Muhammad (2010) *The Multiplicity of Caliphs and the Unity of the Ummah: Jurisprudence, History, and Future*.
- Khulusi, Safaa (1977) *The Art of Poetic Scansion and Rhyme*. 5th ed. Al-Muthanna Library Publications. Baghdad.
- Khalil, Sami (2022) *Manifestations of Iraqi Civilization in Andalusia (138-422 AH / 755-1031 CE)*. *Tikrit University Journal of Humanities*. 29(11).
- Radhi, Muhannad (2022) *Scientific Journeys from Andalusia to Iraq and Egypt Through the Book *Jadhwat al-Muqtabis* by al-Humaydi (d. 488 AH)*.
- Sarra Man Ra'a Journal*. Samarra University. 18(71).
- Al-Saqqaf, Alawi (n.d.). The Historical Encyclopedia. Available at: dorar.net. https://shamela.ws/book/95543.
- Al-Shantarini, Abu al-Hasan (1981). Al-Dhakhira fi Mahasin Ahl al-Jazira (The Treasury of the Virtues of the People of the Peninsula). 1st ed. Arab House for Books. Libya.
- Abdul-Latif, Abdul-Shafi (1428 AH). Al-Sirah al-Nabawiyya wa al-Tarikh al-Islami (The Prophetic Biography and Islamic History). 1st ed. Dar al-Salam. Cairo.
- Ali, Jawad (2001). Al-Mufassal fi Tarikh al-Arab Qabl al-Islam (The Detailed History of the Arabs Before Islam). 4th ed. Dar al-Saqi. Beirut.
- Al-Umari, Shihab al-Din (d. 749 AH) (1423 AH). Masalik al-Absar fi Mamalik al-Amsar (The Paths of Sight in the Kingdoms of the Cities). 1st ed. Cultural Foundation. Abu Dhabi.
- Al-Mu'jam al-Wasit (n.d.). 2nd ed. Arabic Language Academy. Cairo.
- Wahba, Magdi and Al-Muhandis, Kamel (1984) Dictionary of Arabic Terms in Language and Literature. 2nd ed. Library of Lebanon. Beirut.